

الهوية والانتماء في رواية "عراقي في باريس" لصموئيل شمعون

أ.خولة بوبصلة جامعة محمد الشريف مساعدية -سوق أهراس-

ملخص :

تعتبر تجربة "صموئيل شمعون" الكتابية من ناحية الشكل الفني كسابقيها من النصوص الروائية في اعتمادها على تقنية البوح والاعتراف وسرد السير الذاتي، غير أنّها تعتبر طريقة مميزة من ناحية خروجها عن المؤلف من خلال احتياها على القارئ العربي الذي واجه لغزا معقدا ابتداء من العنوان مروراً بالصفحات الأولى وحتى نهايتها فهي مغامرة شيقة تحوي الكثير من القضايا التي تستدعي إمعان النظر فيها، لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية التعرف على صموئيل شمعون وعلى هوية كتاباته، والبحث في مرجعياتها الثقافية والدينية.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الانتماء، الدين، اللغة، صموئيل شمعون.

توطئة:

فرض مصطلح الهوية⁽¹⁾ نفسه حديثاً، ونظراً للغموض والتشعب الذي تميز به أصبح من الصعب العثور على تعريف دقيق محدد، فقد تعددت مفاهيمه واختلقت، كل بحسب خلفياته السياسية واعتقاداته الدينية، كما أنّ للهوية دلالة لغوية وفلسفية واجتماعية وثقافية⁽²⁾، فقد عرض الكاتب أمين معلوف في كتابه "الهويات القاتلة" مفهوم الهوية، ففي بداية حديثه عن معناها يقول بأنّها من بين الكلمات المضلّة ومن أكثر المفاهيم تعقيداً كما يعتبر "الهوية فردية كانت أم جماعية ليس معطى فطرياً يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، بل إنّها تتشكل على الدوام وتتحوّل على طول الوجود، وهو ما يجعل من الهوية بالضرورة مفهوماً مركباً ومتعدد الكونه لا يحيل على انتماء واحد، بل على مجموعة من الانتماءات التي قد تتفاوت في تراتبها من حيث الأهمية"⁽³⁾، ويرى أنّ الهوية متنوعة ومتعددة الانتماءات، فقد طرحت أسئلة كثيرة حولها -الهوية-، وغالباً ما تطرح هذه الأسئلة من قبل الأقليات لأنّها أكثر الفئات الضعيفة التي تعاني تشتتاً وضعفاً في الانتماء، فتلجأ إلى البحث عن علامات تؤكد

¹ -الهوية: مشتقة من الأصل اللاتيني ويقصد بها "الشيء نفسه" ويتضمن مفهوم الهوية الإحساس بالانتماء القومي والديني والإثني، تشترط الهوية التعدد والتمايز والتغاير بحيث يكون الفرد مختلفاً عن غيره من الأفراد والأمة مختلفة عن غيرها من الأمم والثقافة عن غيرها من الثقافات، فالهوية تحمي أصحابها من العوالة.

² - جون جوزيف: اللغة والهوية: قومية وإثنية، ودينية: ترجمة عبد النور خرافي: عالم المعرفة : ط، 2007: ص7.

³ - أمين معلوف: الهويات القاتلة "قراءات في الانتماء والعوالة": ترجمة د-نبيل محسن ط 1999، 1، دار ورد للطباعة سوريا، ص 31.

بها هويتها وتحافظ عليها أمام المد الكاسح للأغلبية، وتلك العلامات تمثل مرتكزا أو مكونا للهوية وتتمثل في الدين، واللغة والتراث الحضاري وغيرها.

تطرح رواية "عراقي في باريس لصموئيل شمعون" كثيرا من القضايا التي تستدعي الوقوف عندها خاصة أنّها لكاتب مسيحي عراقي عانى ويلات الغربة والمنفى، حينما يصل القارئ إلى الصفحة الأخيرة من كتاب "عراقي في باريس" يكتشف عمق الارتباب الذي لفّ مصير المؤلف، وهو يسعى إلى العثور على تعريف لهويته السردية فقد ارتحل من العراق إلى أمريكا، يروم الوصول إلى هوليوود لصنع فيلم عن أبيه الأبكى والأصم "كيكا"، ولكن ثمة قطبا آخر اجتذبه فهو يريد أن يكون فيلمه بعنوان الحنين إلى الزمن الإنجليزي، "فعبير الكاميرا الأمريكية تطلع إلى تحويل ذكرى الأب إلى صورة إنجليزية وفي سعيه المحموم لربط الحلم الشخصي بذكرى الأب، علق صموئيل في منطقة ثالثة هي فرنسا، فانتهى متشردا في باريس وبدل أن يصل إلى أمريكا، ويعيد إنتاج حنينه للزمن الإنجليزي في العراق، كتب "عراقي في باريس"⁽⁴⁾، أهي بداية لقصة تدور أحداثها في أمريكا (هوليوود تحديدا) أم أنّها نهاية؟ وهل هي محاولة لاختراق توقع القارئ؟، فكيف لهذه الملاحظة أن تكون بداية قصة تدور أحداثها في أمريكا وعنوان الرواية هو "عراقي في باريس" وليس "عراقي في أمريكا"؟ كما جاء في الرواية على لسان صديقه: "لا يجوز لعراقي أن يسأل تونسيا ماذا يفعل في باريس، الصحيح هو ماذا يفعل عراقي في باريس؟"⁽⁵⁾، وهذا ما يستهوي القارئ لمعرفة ما الذي يفعله ذلك العراقي الذي يفصح في الكثير من المواضع أنّه ليس عربيا وأنّه ينتمي إلى بلد يشبه صحن الباييلا الاسباني - كناية عن تعدد الديانات والأعراق -.

1- ملامح الهوية والانتماء في رواية عراقي في باريس:

1-1- نبوءة الاسم:

لا يستطيع الفرد أن يحدد هويته بالآخر، كأن يقول أنا هو أنت فما يميزه عن غيره اسمه وملامحه الجسدية وانتماءه دائما يكون على أساس الخصائص (أبيض-أسود) وغيرها من السمات التي تجعله يتميز عن غيره الآخر. فغالبا ما يكون الاسم هو الدال على شخص معين دون سواه، يحمل دلالات لها علاقة بانتمائه الديني، وثقافة الوسط الذي يعيش فيه، يعدّ الاسم أحد ملامح الهوية ومكوناتها التي تجعلها تنفرد وتختلف عن غيرها، وقد يمثل هاجسا وقلقا لدى صاحبه،

⁴ -عبد الله إبراهيم: السرد والهوية والاعتراف، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 2011، ص80.

⁵ -صموئيل شمعون: عراقي في باريس، دار بوقال، دار البيضاء، ط، 2009، ص 35.

خاصة عندما ينتمي ذلك الشخص إلى ثقافتين مختلفتين تجعل من اسمه يتعدد ويحمل دلالات مختلفة، لكن الإشكالية تكمن "في أن يحمل الشخص اسم نبي يهودي، ويحلم في أن يكون مخرجاً سينمائياً"⁽⁶⁾ يحمل اسم البطل تأويلات كثيرة، "فصموئيل" يحيل على نبي يهودي كذلك هو من الأسماء المرفوضة في البيئة الإسلامية، توقعت أم البطل أن يكون اسمه عقبة في طريقه تقول: "هل تعرف يا شموئيل، بعد لحظات قليلة من تسميتك بهذا الاسم شعرت بحزن شديد وقلت لنفسي، إننا بهذا الاسم الثقيل نضع الكثير على كفي هذا البطل"⁽⁷⁾، إن النبوة السوداء هي توقعات لما سيحدث في حياة صموئيل ذلك بسبب الاسم الذي يحمله وكأن والدته بتسميتها له بهذا الاسم جنت عليه الويلات لكن لماذا؟ لأن في الاسم رائحة يهودية، أم لأن صموئيل يمثل أحد أبناء الأقليات المضطهدة في العراق؟.

واجه صموئيل مشاكل كثيرة بسبب اسمه، فقد اتهم أنه عميل سري لدولة إسرائيل وحاسوس، كل ذلك بسبب الاسم الذي يمثل هوية الشخص وما يميزه عن غيره، فدون الاسم يكون في قائمة المجاهيل، هذا ما جعل الأم تتنبأ مسبقاً بما سيحدث له، لأنها كانت على علم بما تعانيه الأقليات الدينية، وإصرارها على الحفاظ على هويتها وانتمائها الديني والثقافي.

نلاحظ في الرواية عدم وجود هوية ثابتة لشخصية البطل فالأسماء تتغير مع تغير الأمكنة والأزمنة، وقد تتغير الأسماء أحياناً حسب مراحل تقدمه في السن جوبي، شموئيل، سام، سامي، العراقي الضائع والآشوري الحزين، المتشرد والنجس، الصعلوك الأمريكي وبوليو والدوماتشيوني... إلخ. غير أن تعدد المدلولات لمسمى واحد، من شأنه أن يؤدي إلى تعدد الهويات، "قد ينتهي بالشخصية إلى شفا المجهولية، فكثرة التسميات ورغبة الارتحال وراء صوة تسقط الشخصية في هوة العتمة"⁽⁸⁾، نفس التعدد في التسميات بالنسبة لوالد صموئيل، فالأسماء أيضاً تتغير كيكاً، شمعون، الأخرس، الأطرش، الأبكم، الفران، السكير... إلخ. تتشعب أزمة الهوية في هذه الرواية وتتعدد، فقد اقترنت هنا بالاسم وصفاته الدينية والثقافية والاجتماعية فتتعدد المدلولات لدال واحد كان نتيجة عدم استقرار والترحال من مكان إلى آخر، فهويته غير ثابتة تعترتها مجموعة من التغيرات والتبديلات، فهو ينتقل من اسم إلى آخر، وهذا دليل على أنه ينتقل من شخصية إلى أخرى، "فأزمة أو إشكالية الهوية لدى البطل تبدأ حقا من اسمه الذي يحيل إلى مرتبة التأويل، مع إثارة مرجعيات إثنية وثقافية ودينية، ولا تنتهي عنده بما أن الاسم ذاته أو مرجعياته ستتضخم عنواناً على تنامي شخصيته على امتداد المغامرة، وفي سعيه لتجديد

⁶ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، ص 80.

⁷ - صموئيل شمعون: عراقي في باريس: ص 8.

⁸ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، ص 81، 82.

هويته، عبر تحقيق الحلم الهوليودي الذي من أجله غادر ما سمته أول رفيقة له في السفر "بلاد القتلة المجرمين"⁽⁹⁾، تبدأ نبوءة الأم في التحقق، فلجنة الاسم تصاحبه أينما وجد لكن كتاب "عراقي في باريس" لا يعرض دعاوي أيديولوجية، وبراهين رفضية، يتبناها منفي، إنما هو مسار صاعد لحلم فردي يتشبث به صاحبه ليحقق هدفا تتآكل من حوله أهمية كل الأشياء الأخرى إلا ذلك الحلم نعم، تتعرض الشخصية لمضايقات كثيرة، وتتعثر في مسعاها، ويعتدى عليها، وينحرف مسارها لكنها قابضة على جمرتها، فلم تعرض تفسيراً أيديولوجياً مقصوداً يحول دون حلمها"⁽¹⁰⁾. أصبح الاسم دليل تهمه، أخذ يلاحقه من مكان إلى آخر، فمن المخابرات السورية إلى الكتائب اللبنانية فالمخابرات الأردنية يقول: "فما ذنبي لو حملت اسماً يدعى صموئيل شمعون، فيقتلعون، ويحرقون بيتي، تستقبلني العواصم العربية العتيدة بالزنازين المعتمة والإهانات المتخامة لخشخشات القبور، ثم أهرب إلى عالم التسكع، والتشرد في شوارع باريس، لمجرد أنني أحمل هذا الاسم ولدي حلم وطموح أن أكتب سيناريو فيلم سينمائي عن والدي الفران الأطرش، الأصم؟"⁽¹¹⁾.

2-1- المشكلة الدينية:

واجهت الأقليات الدينية الكثير من المشاكل من بينها، مسألة الهوية خاصة أن "الهوية العربية تقوم على عدد من المرتكزات المعروفة، وفي طبيعتها الدين (وهو الإسلام غالباً) واللغة والتراث الحضاري وكل ما ينطوي عليه من عمق تاريخي"⁽¹²⁾، فمن بين المشاكل التي تعرضت لها المد الكاسح من العولمة والاعتراب وسط أكثرية تختلف عنها في سمات عديدة ومؤثرات ثقافية داخلية كالدين واللغة والتراث الشعبي وغيرها من مقومات الهوية، والذي يعيننا في هذه الدراسة هو رصد ملامح الهوية الدينية في رواية "عراقي في باريس"، فعند قراءتها لا يمكننا تجاهل المعتقد الذي يدين به الكاتب وإن لم يتناول ذلك بطرق مباشرة.

يشير الكاتب في متنه الروائي إلى مسألة الختان التي تخرق توقعات القارئ، فالبطل يختن وهو في الثامنة والعشرين من عمره، "يعد الختان في الثقافات الدينية طقس عبور من حال إلى حال أخرى، وهو نوع من إعادة تعريف الهوية، والانتماء إلى

⁹ - أحمد المديني: تحولات النوع في الرواية العربية بين مشرق ومغرب، دار الأمان، المغرب، ط1، 2012 ص285.

¹⁰ - عبد الله إبراهيم: السرد والهوية والاعتراف، ص 80.

¹¹ - صبري يوسف: قراءة تحليلية لرواية عراقي في باريس لصموئيل شمعون - www.ahewar.org

¹² - سعد البازغي: شرفات للرؤية والعولمة والهوية والتفاعل الثقافي: المركز الثقافي العربي: بيروت ط2005: ص 45.

جماعة، وفي اليهودية والإسلام يعد الختان انتقلا من النجاسة إلى الطهارة".⁽¹³⁾ كان البطل على يقين تام أنّ الختان ليس مرتبطا بالإسلام فقط، فاليهود أيضا يختنون فطبقا للتوراة في سفر التكوين الرب وعد إبراهيم ونسله بأرض كنعان وهي الأرض الموعودة "يختن منكم كل ذكر، فختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم".⁽¹⁴⁾ أشار صموئيل إلى ذلك في الرواية يقول: "لم لا أكون يهوديا يا حاج فاليهود يختنون أيضا"⁽¹⁵⁾ فالختان مرتبط أيضا بالديانة اليهودية وليس الدين الإسلامي فقط، كما أنّهما يشتركان في فكرة التحول من النجاسة إلى الطهارة، أما في الديانة المسيحية فهي عكس ذلك ففي الرواية يخبر الأب كيكا ابنه عن طريق الإشارات "أنّ الختان ما هو إلا نجاسة والمختون شخص نجس"⁽¹⁶⁾، فالأمر لم يكن مرتبطا بمسألة النجاسة والطهارة فقط، بقدر ما هو مرتبط بقضية الهوية، فما الغرض من ختانه في سن الثامنة والعشرين؟، وهل يعني ذلك أنّه أصبح ينتمي إلى هوية أخرى؟ أم تعد محاولة للاندماج في عالم رافض له. يعتبر الختان آخر علامة تربطه بهويته، وتبعده عن الديانة التي ينتمي إليها "فقد عاشت الشخصية ضمن مجال إسلامي مشبع بقيم الختان بوصفه علامة طهارة، واسم المؤلف يحيل على نبي يهودي، لكنه مسيحي آشوري ينبغي عليه أن يحافظ على قلقته علامة على هوية خاصة في وسط يموج بصراع القيم"⁽¹⁷⁾ فدلالة الختان هنا محاولة الجمع بين اليهودية المتمثلة في الاسم وصلتها به وبين البيئة التي ينتمي إليها.

مرّ صموئيل خلال رحلته للوصول إلى أمريكا بالكثير من الصعوبات، خاصة داخل البلدان العربية التي تميزت بالتفكك والانقسام، وتفاقم الحروب الأهلية داخلها فأصبحت بمقتضى ذلك غير مرتاحة لكل دخيل عليها خاصة عندما يكون هذا الدخيل يحمل اسم يهودي، فكثيرة هي الوقائع التي يستحضرها السارد خلال تنقله بين سوريا وبيروت الشرقية والغربية، وعمان والشبهات التي لاحقته وما تعرض له من أعمال وحشية وإذلال كل ذلك سببه أنّه لا ينتمي إلى الدين الإسلامي، فصاحبته الرغبة في الاندماج وسطهم عله يحظى بفرصة العيش بسلام فكان الختان ملاذه الوحيد علّه يعيد الاعتبار لذاته ويهدم القيود التي

¹³ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، ص 84.

¹⁴ - الكتاب المقدس: "أي كتب العهد القديم والعهد الحديث"، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط مصر، ط2005، 1.

سفر التكوين: ، عهد الختان، 17، 18، ص 12

¹⁵ - صموئيل شمعون: عراقي في باريس، ص 24.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص 200.

¹⁷ - عبد الله إبراهيم: السرد والاعتراف والهوية، ص 85.

منعته من ممارسة حريته، والتي حالت دون تحقيق حلمه، يقول: "لقد قطعت العضو المشبوه والإمبريالي في جسدي"⁽¹⁸⁾، فكانه بختان نفسه، قد محا أي دليل يربطه بالدين المسيحي.

جاءت رغبة صموئيل في أن يختن بطريقة مفاجئة لكننا لا نستغرب ذلك، خاصة أنه كان مشتتا وضائعا "شيئا فشيئا بدأت أشعر بالضيق، وعادت أحلامي السينمائية تراودني في الليل ولم أعد أستطيع النوم..... توقفت للحظة وأخذت أفكر، ثم وجدت نفسي أدخل المحل"⁽¹⁹⁾. لقد أسهم ترحاله في فضاءات متعددة "سوريا، عمان، بيروت الشرقية والغربية وقبرص، وأخيرا تونس" واختلاطه بأجناس مختلفة، في اضطراب هويته حيث أنه لم يستطع العيش في أي مكان أو الاندماج فيه لكونه يختلف عنهم، إضافة إلى أنه لم يصل للغاية التي رحل لأجلها من العراق، مما أدى به إلى الإحساس بالضيق وعدم الاستقرار يقول: "أحيانا أتساءل إلى هذا الحد كنت مدمرا نفسيا"⁽²⁰⁾، فنتج عن ذلك محاولة للدخول في عالم المختونين علّه يجد ضالته داخلهم وفي المقابل تخليه عن هويته الدينية وانتمائه المسيحي من أجل تحقيق حلمه في أن يصنع فيلما سينمائيا عن والده الأخرس.

يستمد البطل انتماءه من البيئة التي يعيش فيها ومن الثقافة التي تسيطر عليها، كما اكتسب انتماءه الديني من مجتمعه وإيمانه بعاداته ومعتقداته وثقافته، إلا أنه يتحول من مسيحي غير مختون قام عمدا بتسفيه الهوية في أحد طقوسها الدينية وهو الختان، إلى شخص ضائع يعاني أزمت نفسية وتشتت ضياعا انتهى به إلى التشرّد في شوارع باريس وحاناتها. كما عانى البطل في نوعا من الانقسام والتشتت والخوف الذي صاحبه في كل مكان فعقدة الإفصاح عن هويته الأصلية وانتمائه الديني قد توقعه في المشاكل، مثلما يحدث له دائما لذلك كان ينبغي عليه الاحتراس وتوخي الحذر، نلاحظ ذلك عندما طرحت الجدة سؤالها قائلة "ما هي ديانتك" فيجيبها بشيء من التهرب: "إنني في الأربعين من عمري أيتها الجدة لقد عشت حياة صعبة جدا وعرفت فيها العديد من الناس اللطفاء وأن أفضل أصدقائي ينتمون إلى أديان مختلفة، وحين أكون مع أي واحد من منهم أشعر أنني أشاركه نفس الدين"⁽²¹⁾، قد يعني بذلك أنّ مبدأه يقوم على الفهم المشترك للأديان السماوية والتفاعل معها ومحاولة اكتشافها من خلال معاشرته للكثير من الأصدقاء الذين ينتمون إلى أديان مختلفة، ومن جهة أخرى قد يعني غير ذلك

¹⁸ -صموئيل شعون: عراقي في باريس، ص25.

¹⁹ -المرجع نفسه، ص24.

²⁰ -المرجع نفسه، ص24.

²¹ -شتيخ بن يوسف: ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية عدد خاص الملتقى الوطني الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري جامعة عمار ثلجي، الأغواط، ص 501.

فلو كان ينتمي إلى معتقد ديني ما قد يلجأ إلى إلغاء كل الأديان ومحوها وطمسها في مقابل محافظته على ديانتها. غير أنَّ الدين من بين مكونات الهوية غير القابلة للتغيير، فصموئيل قد يحاول القول إنَّه بإمكانه الاندماج مع جميع الأديان لكن لا يعني أنَّه لا يعتنق ديناً معيناً، وهذا ما كانت أمه تخاف منه عندما كانت تسمعه يترنم القرآن قبل النوم "أخشى أنك ستبيع دينك ذات يوم" لكن السؤال المطروح أحقاً باع صموئيل دينه وهويته الدينية؟ أم أنها مجرد عقدة خوف في الإفصاح عن هويته وانتماءها العقائدي؟. يأتي اعترافه بدينه في الرواية بطرق مباشرة يقول: "كان أدامس يسألني دائماً عن أي شيء أطبعه له، من جهة كان هذا تواضعاً منه، ومن جهة أخرى كان ينظر إلي باعتباري مسيحياً"⁽²²⁾، كما أنَّه يستحضر أسماء الكنائس "كنيسة السان سوليبس" وغيرها، صموئيل هو اسم البطل الذي سأل ذات يوم عن سبب تسميته بهذا الاسم: "من اختار لي هذا الاسم"، فأجابت الأم: "في اليوم الذي ولدت فيه، زارنا قرياقوس وسألني إن كنت قد اخترت لك اسماً كنت وحيدة وكنت محتارة في تسميتك، فأخذ قرياقوس الكتاب المقدس وفتح، ثم سألني عن رأي في اسم صموئيل، فوافقت على الفور: "فهذا الاسم موجود في الكتاب المقدس واسم نبي وهو سفر مقسم إلى إصحاحات وقد جاء في الإصحاح الأول: 20 "وكان في مدار السنة أن حنة جبلت وولدت ابناً ودعت اسمه صموئيل قائلة لأن من الرب سألته"⁽²³⁾، حمل اسم صموئيل دلالات دينية كثيرة من بينها أنَّ هذا الاسم موجود في الكتاب المقدس، إنَّ إمكانية احتواء الرواية للطابع الديني المسيحي موجودة بداخلها، خاصة أنَّها موجهة للقارئ العربي سواء كان مسلماً أو مسيحياً، فهي في مقابل الكشف عن وضع الأقليات المسيحية وما يحدث لها من اعتداءات وغيرها، تسعى إلى التعريف بالهوية المسيحية والتأثير في القارئ العربي عن طريق الخطابات التي تمررها، كما أنَّها محاولة منه للحفاظ على الدين المسيحي وسط المدَّ الكاسح للإسلام.

3-1- مشكلة اللغة:

بما أنَّ هوية الفرد هي عقيدته ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه، فاللغة تعتبر من أقدم مكونات الهوية القومية ذلك أنَّها جعلت فئة من الناس أو الجماعة يشتركون في لسان واحد، كما جعلتهم يتميزون عن غيرهم "فاليونانيون مثلاً ميزوا أنفسهم عن البربر لأنَّهم شعب لا يتحدثون اليونانية، وكذلك اليهود في الأندلس استعملوا اللغة العبرية فعلوا ذلك كي يحافظوا على هويتهم الدينية"⁽²⁴⁾، فهو دليل على عمق العلاقة بين اللغة والهوية لكن ما العلاقة بينهما؟.

²² -صموئيل شعون، عراقي في باريس، ص 130.

²³ -الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر صموئيل الأول: مولد صموئيل: 1.2: ص 216.

²⁴ - جون جوزيف: اللغة والهوية: قومية، إثنية، دينية، ص 7.

يرى فيصل درّاج أنّه من الضروري التمسك بالهوية اللّغوية: "ذلك أنّ اللّغة تشكل عنصراً أساسياً من عناصر الهوية القومية"⁽²⁵⁾، انطلاقاً من المقولة المشهورة "تحدث حتى أراك" ترتبط اللّغة بالهوية ارتباطاً وثيقاً فالفرد يعبر عن هويته عن طريق اللّغة التي تعد وسيلة تواصل بين الجماعات، فالعلاقة بينهما علاقة ارتباط وتفاعل، كما أنّ العروبة ليست بأب وأم، فكل من تحدث العربية فهو عربي بفعل اللّغة لذلك يعد الأدباء عرب عن طريق اللّغة العربية التي يتحدثون بها ويستعملونها في الكتابة والإبداع. قد تعدد اللّغات داخل الوطن الواحد ففي العراق نجد التنوع اللّغوي منتشراً في الشمال أو الجنوب، كاللّغة الكردية والآشورية، إضافة إلى اختلاف اللهجات المحلية من منطقة إلى أخرى، واللّغات الأجنبية التي خلفها الاستعمار. فإلى جانب اللّغة العربية يوظف الكاتب اللّغة الآشورية كمعلم من معالم الهوية المسيحية وإن كان حضورها قليلاً في الرواية، غير أنّها تكشف عن خصوصية التواصل بين الأقليات الآشورية. يورد الكاتب بعض العبارات عادة ما تكون على لسان الأم كرجيه فعلى سبيل المثال تقول "أشقلي آلاها أشقلي" وفي موضع آخر نجد عبارة "شيدانا بروننت شيدانا"⁽²⁶⁾ غير أنّ الالاف لا تتنباه ذكره لعبارات آشورية دون تقديم معنى لها، وكأنّه يطرح الفكرة بصيغة متبينة تمكنا من القول إنّّه يريد توجيه خطاب خاص للأقليات الآشورية، تقتضي منهم العودة إلى أصولهم وتراثهم ولغتهم، والدفاع عنها ضد المدّ الكاسح للغة العربية التي تسعى غالباً إلى طمس الهوية المسيحية وبالتالي إلغائها ولغتها وثقافتها الآشورية .

يعرض عبد الفتاح كيليطو في كتابه "لن تتكلم لغتي" عدة تساؤلات يقابلها بالطرح والتفسير حول إمكانية إتقان لغتين فما فوق وما ينجم عنها من إحساس بالضياع، نلمس ذلك من خلال قوله: "ويتأكد لدي هذا الارتسام عندما أشاهد أشخاصاً يتحدثون بلغة أجنبية لا أفهمها، أصاب حينئذ بالدهشة والذهول، وأكاد أعتقد أنهم ضائعون في لغتهم وغير قادرين على الإفلات منها، ولا أحد بإمكانه تخليصهم من قبضتها، ولا شفاء يرجى لهم...".⁽²⁷⁾، إنّ الحديث عن التعدد اللّغوي والانفتاح على عدة لغات، أمر يستدعي الوقوف عنده، فهناك من يرفض تعلم لغة الآخر ومن بينهم عبد الفتاح كيليطو فمن خلال حديثه السابق نلمس أشكال الرفض الذي تبين من خلاله أنّه لا يريد الانفتاح على الآخر والاندماج معه من خلال إتقان لغته والتحدث بها، فاللّسان على حسب تعبيره علامة على التكيف والاندماج، فهو إن تعلمها، يتخلى بالتدريج عن لغته الأم. هي رؤية إلى حد ما تعبر عن موقفه تجاه التعدد اللّغوي.

²⁵ - فيصل درّاج: الذاكرة القومية في الرواية العربية من النهضة إلى زمن السقوط، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2008، ص 176.

²⁶ - صموئيل شمعون: عراقي في باريس، ص39.

²⁷ - عبد الفتاح كيليطو: لن تتكلم لغتي، دار الطليعة، بيروت، ط، 2002، ص 100 .

يقدم الكاتب إلى جانب ذلك موقفه من الأجنبي الذي يتكلم بلغته يقول: "لكن ماذا يحدث عندما يتكلم هذا الأجنبي تماما كما نتكلم نحن، عندما يبين بالضبط كما نبين؟ يتغير حينئذ كل شيء، ينتهي الرفق واللفظ، وينشأ شعور بالارتباب، فهذا الشخص الذي برز من مكان قصي بعيد يثير الارتباك، ليس فقط لأنه يبطل إحساسنا بالرفعة والتفوق ولكن أيضا لأنه يسلبنا فجأة لغتنا، ينتزع منا لساننا ومقومات وجودنا وما نعتقد أنه يشكل هويتنا يسلبنا أنفسنا ومأوانا وهذا ما يفسر الاضطراب"⁽²⁸⁾، فذلك الأجنبي الذي يمثل صورة الآخر سرعان ما يهدد كيانه، لذلك يرفض عبد الفتاح كليطو الازدواجية اللغوية ومشاركة الآخر في نفس اللغة لأنها تبقى مقوما تميزه وينفرد بها عن غيره، فهو ينظر إليها بعين الناقد الحريص على هويته اللغوية من التماهي مع الآخر واندثارها سرعان ما يستحوذ عليها فمن منظوره يسبب التعدد اللغوي اضطرابا يمس أركان الهوية إلى حد ما. يصل الكاتب كلاجئ سياسي إلى باريس، وهناك تعترضه مشكلة أخرى وهي إمكانية الاندماج داخل المجتمع الفرنسي، الذي يفرض عليه أن يتقن اللغة الفرنسية، فتعتبر بداية الانفتاح على هويات جديدة، فهل يتقبلها ويندمج داخلها أم لا؟.

إنّ القول بوجود مكونات للهوية "غير قابلة للتغيير كالدين واللغة فحتى هذه لا تسلم من التغيير البطيء من ناحية فهمها وتأويلها لكونها تدخل في صلب العقيدة"⁽²⁹⁾، وهناك مكونات أخرى بإمكانها التغيير لأنها تقع خارج العقيدة كالعادات والتقاليد وغيرها من المكونات الأخرى، فالحفاظ على الهوية لا يكمن في الانغلاق على نفسها ورفض ما هو وافد لذلك فالتعايش هو الأمثل للحفاظ على الهويات.

في بداية الأمر واجه صموئيل بعض الصعوبات في تعلم اللغة الفرنسية يقول: "ذات مرة كنت ألعب البغ بونغ مع معلمتنا فاطمة حين قالت لي إن ما يقوم به" لانغام "أمر طبيعي إنه يحاول أن يدافع عن نفسه، لأنه يواجه شيئا جديدا، وأكد لك بأنه سيتكلم الفرنسية في وقت قريب".⁽³⁰⁾، تبدو شخصية لانغام نائرة ورافضة لكل ما هو جديد وافد قد يمس هويتها أو يلغيها بما تحمله من خصوصية دينية ولغوية وثقافية ومن عادات وتقاليد وهاجس الخوف الذي ينتابه من السلبيات التي يحملها الآخر الذي ينظر إليه نظرة إعجاب وانبهار، "وقد كانت على حق"⁽³¹⁾، هذه العبارة التي أنهى بها صموئيل حديثه، تعكس

²⁸ - المرجع نفسه: ص 108.

²⁹ - محمد صالح الهرماسي: مقارنة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 2002

ص 30.

³⁰ - صموئيل شمعون: عراقي في باريس، ص 28.

³¹ - المرجع نفسه، ص، 28.

مخاوفه من أن يتجرد من مكونات هويته الشخصية أو اللغوية التي تعد ثوابت أصلية "فالانفتاح بالطبع ليس قدرا محتوما بل ما هو إلا إمكان يستثمر أو فرصة تسنح.....ومن ينغلق على ذاته لا يحافظ على هويته بل يخسر ما يريد المحافظة عليه، بقدر ما ينتج ضعفه وهماشيته".⁽³²⁾ هذا يعني رفضا للاستسلام العبودي والتقوقع والانفتاح على كل ما يفيد الهوية.

هناك على جسر الكونكورد وجد صموئيل لغته الضائعة، فهل يعني بها اللغة الآشورية أم ماذا؟. يقول :

فوق جسر الكونكورد

وجد الآشوري الحزين

ذات ليلة

لغته الضائعة.⁽³³⁾

وجد الآشوري لغته الضائعة التي سلبها الطغاة وحرموه من استعمالها لم يجدها في وطنه لأنه منع منها ولكن وجدها في منفاه، حيث عانى التشرد والوحدة. اللغة الضائعة التي يقصدها هي لغته الأم، اللغة الآشورية التي حرم من التحدث بها مقارنة مع بقية اللغات التي كان يستعملها في حديثة دون أي مشكلة لأنها لا تشكل أي خطر ففي باريس تمكن من تعلم اللغة الفرنسية والألمانية، نظرا للحرية المطلقة، استطاع البحث عن لغته الضائعة، وتمكن من العثور عليها على جسر الكونكورد. تلك اللغة التي منع من استعمالها داخل العراق لأنها دليل انتماء إلى الطائفة الآشورية.

الخاتمة :

وفي الأخير يمكننا القول إنّ رواية عراقي في باريس استطاعت أن تخالف في مضمونها عدة نصوص روائية سبقتها، خاصة من خلال طرحها لمسألة الهوية برؤية مغايرة، فالانفتاح على هوية الآخر يساعد المرء على معرفة نفسه، وهذا ما جعله يختلف عن غيره، من خلال إتقانه للغة الآخر والاطلاع على ثقافته، مع تجنب الانغلاق على الذات والانفتاح على عوالم مختلفة مضيّفا على ذلك روح التسامح الموجودة في نصه. كما أسهم الحلم الدفين في تكوين شخصية "شمعون" فبرغم من عدم تحقيقه للهدف المنشود إلا أنّ هذا الوهم أو الحلم أسهم في تفعيل وإنتاج نص حافل ومتفرد، لأنه كان قائما على مبدأ "الغائية"، فالرحيل هو التيمة الأساسية التي تقوم عليه "عراقي في باريس" فلولا هذا الحلم لما كان هنالك دافعا للرحيل ولا لكتابة نص

³² - علي حرب: حديث النهايات فتوحات العملة ومأزق الهوية: المركز الثقافي العربي: ط2، 2004، ص 186.

³³ - صموئيل شمعون: عراقي في باريس، ص 107 .

روائي. معالجا بذلك إشكالية الانتماء من منظور يرمي إلى وجود منبع واحد تلتقي فيه الطوائف المتعددة والمختلفة عقائديا ودينيا، معرجا على قضية اللغة التي مهما اختلفت إلا أنّها تؤدي وظيفة واحدة وهي التواصل الاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. البازغي سعد: شرفات للرؤية والعملة والهوية والتفاعل الثقافي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط2005.
2. المديني أحمد: تحولات النوع في الرواية العربية بين مشرق ومغرب، دار الأمان، المغرب، ط1، 2012.
3. الكتاب المقدس: "أي كتب العهد القديم والعهد الحديث"، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط مصر، ط2005، 1.
4. الهرماسي محمد صالح: مقارنة في إشكالية الهوية في المغرب العربي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت ط2002.
5. إبراهيم عبد الله: السرد والهوية والاعتراف، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 2011.
6. بن يوسف شتيح: ثلاثية الدين واللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية عدد خاص الملتقى الوطني الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري جامعة عمار ثليجي، الأغواط.
7. جوزيف جون: اللغة والهوية: قومية وإثنية، ودينية: ترجمة عبد النور خراي: عالم المعرفة : ط، 2007.
8. حرب علي: حديث النهايات فتوحات العملة ومأزق الهوية: المركز الثقافي العربي: ط2، 2004.
9. دراج فيصل: الذاكرة القومية في الرواية العربية من النهضة إلى زمن السقوط، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2008.
10. كيليطو عبد الفتاح: لن نتكلم لغتي، دار الطليعة، بيروت، ط، 2002.
11. معلوف أمين: الهويات القتالة "قراءات في الانتماء والعملة": ترجمة د-نبيل محسن، دار ورد للطباعة سوريا ط 1999.
12. يوسف صبري: قراءة تحليلية لرواية عراقي في باريس لصموئيل شمعون -www.ahewar.org